بسم الله الرحمن الرحيم

١٦ - سورة النحل

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[١] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده ، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . بحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعانى المثمرة ، وعلى التصرفات العالية . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية . وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهايمىّ .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهمّ . ليتفطن الغرض الذى يرمى إليه . كـ(الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعىّ وما يَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة . و(النحل). و(العنكبوت). و(النمل). للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتى طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته فى هذه السورة .

وهى مكية . واستثنى ابن عباس آخرها . وعن الشعبىّ إلا قوله تعالى[٢] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبىّ : إلا قوله تعالى[٣] (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ) الآيات . وآيها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٨]. (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦]. (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

«أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تقرر فى غير ما آية، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ، استهزاء وتكذيباً بالوعد . فقيل لهم (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير عنه بـ(أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوّه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع. أو عن إتيان مباديه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله تعالى[١] : (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله[٢] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) وقوله[٣]: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ. وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ)

«يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩/ العنكبوت/ ٥٣].

لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ » ردٌّ لاستبعادهم النبوة ، بأن ذلك سنة له تعالى. ولذا ذكر صيغة الاستقبال كقوله تعالى[١] (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ) وقوله[٢] (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) والروح هو الوحى، الذى من جملته القرآن. لقوله تعالى[٣] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۖ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة . فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل و(مِنْ أَمْرِهِۦ) بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق بـ (ينزل) . و (من) للسببية و (أَنْ أَنذِرُوٓا۟) بدل من الروح . أى أخبروهم بالتوحيد والتقوى . فقوله (فَٱتَّقُونِ) من جملة المنذر به . أو هو خطاب للمستعجلين ، على طريقة الالتفات . والفاء فصيحة أى إذا كانت سنته تعالى ذلك ، فاتقون ، بما ينافيه من الإشراك وفروعه ، من الاستعجال .

قال الزمخشرىّ : ثم دل على وحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ومايصلحه ، ومالابد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجر أثقاله وسائر حاجاته . وخلق مالا يعلمون من أصناف خلائقه. ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] .
(٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .
(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

[٥] (وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ » أى مهينة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُّبِينٌ » أى مخاصم لخالقه مجادل ، يجحد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا « وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى سورة الأنعام .

قال الزمخشرىّ : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى مايدفىء أى يسخن به من صوف أووبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنَٰفِعُ » أى من نسلها ودرّها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ » أى زينة « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردّونها من مراعيها إلى مراحها (بضم الميم) وهو مقرّها فى دور أهلها بالعشىّ « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشرىّ : منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها . لأن الرعيان ، إذا روحوها بالعشىّ ، وسرحوها بالغداة ، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه[1] (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)[2] (يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .

ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

«وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ» أى أحمالكم «إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ» بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان فى معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالغيه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» أى حيث سخرها لمنافعكم . ثم أشار إلى ما هو أتم فى دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال «وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ» عطف على (الأنعام) «لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً» عطف محل (لتركبوها) فهى مفعول له أو مصدر لمحذوف . أى وتتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزينا بها . وسر التصريح باللام فى المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلى فى الأصناف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا فى (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعـــام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا ، لـكان ذكرُهُ والامتنانُ به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوّزون لأكلها ، بأنه لا حجة فى التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافى غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عامَ خيبر. وقد قدمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل. فلو سلمنا أن هذه الآية متمسَّـكاً للقائلين بالتحريم ، لـكانت السنَّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال. وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث. منها ما فى الصحيحين[1] وغيرهما، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة والترمذىّ[2] وصححه والنسائىّ[3] وغيرهم من جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيـــل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ ـ باب النحر والذبح ، حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم فى: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٢٣ ـ كتاب الأطعمة، ٥ـ باب ماجاء فى أكل لحوم الخيل.

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ ـ باب الإذن فى أكل لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً فى الصحيحين[١] من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود[٢] والنسائىّ[٣] وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففى إسناده صالح بن يحيى . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحلّ . على أنه يمكن أن يكون متقدما على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا فى (فتح البيان) .

وفى (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردًّا على الحنفية فى قولهم بوجوب الزكاة فيها . أى الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من المخلوقات فى القفار والبحار . وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ، وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ » .

فى الآية فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسّية ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩ وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٥ ـ باب فى أكل لحوم الخيل ، حديث رقم ٣٧٨٨ . (٣) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ ـ باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نبّه على الطرق المعنوية الدينية . وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية الدينية . كقوله تعالى[١] : (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ) وقال تعالى[٢] (يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) .

ولما ذكر تعالى ، فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه . فبيّن أن الحق منها موصلة إليه . فقال (وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ) . كقوله تعالى[٣] : (وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) وَقَالَ[٤] (هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ) انتهى . وقوله سبحانه : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) .

الثانية ـ قال أبو السعود : (القصد) مصدر بمعنى الفاعل . يقال سبيل قصد وقاصد . أى مستقيم . على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . أى : حقٌّ عليه سبحانه وتعالى ، بموجب رحمته ووعده المحتوم ، بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق ، الذى هو التوحيد . بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه . أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل . قاله أبو البقاء . أى عليه ، عز وجل ، تقويمها وتعديلها . أى : جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق . لكن لا بعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه ، بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج (سبحان من صغّر البعوض . وكبّر الفيل) وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدله . وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لا حبٌ يهتدى بمناره . وعلم يستضاء بناره . وأرسل

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .
(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٣) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلًا مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هـذا الوحى الناطق بحقيقة الحق . الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلىسبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى مَعالم الهدى . المنحّية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة ـ الضمير فى (وَمِنْهَا جَآئِرٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالـكه إليه . وهو طرق الضلالة التى لا يكاد يحصى عددها، المندرج كلها تحت الجائر. كقوله تعالى[1] : (وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) .

قال أبو السعود، بعدما تقدم : أى: وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلـكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد ـ وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مخلّ بحكمته ، حيث يستدعى تسوية المحسن والمسىء ، والمطيع والعاصى ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى : (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائـكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولـكن لم يشأه . لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعيه إليها . ولا حكمة فى تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك التـكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ، التى بها نيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلىّ ، بعد الحيوان ، النباتُ ، تأثر ما مرّ من الإنعام بالأنعام والدواب ، التى يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة نفسها . فقال سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أى ومنه يحصل شجر. والمراد به ماينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أى ترعون أنعامكم « يُنۢبِتُ » أى الله عز وجل « لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ » أى الذى فيه قوت الإنسان « وَٱلزَّيْتُونَ » أى الذى فيه إدامه « وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ » أى اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ «وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ» أى يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصّل « لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه[1] « أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » .

قال أبو السعود ـ وأصله للرازىّ فى شرح كون ماذكر حجة ـ : فإن من تفكر فى أنّ الحبةأو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذفيها فينشق أسفلها فيخرج منهعروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لاإلى نهاية .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل ـ علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لايمكن أن يشبهه شيء ، فى شيء من صفات الكمال . فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء فى أخص صفاته ، التى هى الألوهية واستحقاق العبادة. تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكر . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

«وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ» أى لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ» لإصلاح مانيط بهما صلاحه من المكونات «وَٱلنُّجُومُ» ليهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. وقوله تعالى: «مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ» حال من الجميع. على معنى جعلها مسخرات. لأن فى التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص.

فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فـ (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمىّ ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادىّ . لأن الإحداث لايدل على الاستمرار. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما. ورفع مابعدهما على الابتداء والخبر . وقرئ (وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وماقبله بالنصب. «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ» أى تسخير ما ذكر «لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» .

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ماخلق فى الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَٱلنُّجُومُ) رفعاً ونصباً، على أنه مفعول (لجعل) أى وما خلق « لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ وَإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخيره البحر ، وتعداد النعم به ، إثْرَ امتنانه بنعم البر ، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشرىّ : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأنَّ ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لاينبغى أن يتناول إلا طريًّا. والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شىء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبّىّ . وهذا لاينافى تقديده وأكله مخلّلا ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر فى سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكر فى باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، فى خلقه إياه، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما فى الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً » كاللؤلؤ والمرجان « تَلْبَسُونَهَا » أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم فى الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث، لحقه فيه بالتجمل. فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له. فعبّر عن حظه فى لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال[1] :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول ، أن النساء

---

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازىّ . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كالمعنى . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدروه فى الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم : تلبسها نساؤهم . لأنهن من جملتهم ، أولكونهن يلبسنها لأجلهم . وليس فى الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجانا . انتهى .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بحنث الحالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حليا) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة فى حلى النساء . فأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر . أنه سئل : هل فى حلىّ النساء صدقة ؟ قال : لا . هى كما قال : (حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال فى (فتح البيان) : وفى هذا الاستدلال نظر . والذى ينبغى التعويل عليه : أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد فى الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد فى الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى ٱلْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاخِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (المخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ـ » عطف على محذوف . أى لتنتفعوا بذلك (لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ـ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، فى مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلًا . مع أنها فى تضاعيف المهالك . وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَٰمَٰتٍ ، وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ » أى جبالًا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِكُمْ » أى تضطرب « وَأَنْهَٰرًا » أى جعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُلًا » أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى فى الجبال. كما قال تعالى[1] (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) « لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بها إلى مآربكم « وَعَلَٰمَٰتٍ » أى دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح، برًّا وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أى فى الظلام برًّا وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة . وتقديم الضمير للتقوّى . وهذا أولى من دعوى الزمخشرىّ ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب فى الآيات السابقة عامًّا فكذا يكون فى لاحقها .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : هـذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« أَفَمَن يَخْلُقُ » أى كل شىء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَن لَّا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو مايعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته، مالا يقدر على خلق شىء من ذلك ، بل على إيجاد شىء ما .

وزعم الزمخشرىّ ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى[1] (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) فجدد به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لايفتقر إلى شىء سوى التذكر .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لايحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشرىّ .

ولحظ ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أى فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقىّ . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ماتقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى[١] (وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل مابينهما بقوله[٢] (أَفَمَن يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر، إثْرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التى هى أدلة الوحدانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

[٢٠] (وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

[٢١] (أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

«وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسيجزيكم عليه « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى فأنّى تستحق الألوهيـــة ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أوالمعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لايقدرون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل[٣] عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله « أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ » أى هى جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَآءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان، والنطف التى ينشئها الله تعالى حيواناً. فلذا احترز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَآءٍ) أى لايعتريها الحياة أصلًا . فهى أموات على الإطلاق، حالًا ومآلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى تلك الأصنام المعبودة « أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى يكون

---

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦] .

بعثها . وقد رُوى ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم . تهكما بحالها . لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٢] (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمدعى، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل. كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ » أى لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله[1] : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال تعالى[2]: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقوله تعالى«وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى[3]: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

---

(١) [٣٨ / ص / ٥] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .
(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدها منها . كما قال تعالى[1] : (وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلوهم . كقوله تعالى[2] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله (لِيَحْمِلُوٓاْ) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما حقيقة ، على معنى أنه قدّر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحتم عليهم . فيتم الكلام عند قوله : (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشرىّ : حال من المفعول . أى : من لايعلم أنهم ضُلّال . وإنمـا وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل . فجهله لايعذره « أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

«قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى بأنبيائهم « فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسُسِه ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم و (الإتيان) يتجوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى[1] (فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟) ويقال أُتِيَ فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أمنه. وأَتَى عليه الدهرُ : أهلكه وأفناه . ومنه الأُتُوُّ . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتوٌّ أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز فى الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالمحكىّ عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى. شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفى إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمَّدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَل أساطينه بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جبًّا ، وقع فيه منكبًّا . وقوله (مِن فَوْقِهِمْ) متعلق بـ (خر) . و (من) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد. لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم فى ملكه وإن لم يقع عليه «وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ» أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ » أى يذلهم ويهينهم بعذاب الخزى، لقوله تعالى[1]: (رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة ، بناء على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى مالهم لايحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ماتقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله[2] : (أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل: حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم. « قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاقونهم « إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، مالايضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) هذا شماتة بهم، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

«ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ، بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » هذا إخبار عن حال المشركين الظالمى أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أى ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء فى الأجسام . فاستعمل فى إظهار الانقياد ، إشعارًا بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشىء الملقى بين يَدَي القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ) منصوب بقول مضمر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الآخرى[1] (فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[2] . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)[3] . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا) أى مقدرًا خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم. وينال أجسادهم، فى قبورها،

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. كما قال تعالى[1] (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) وقوله (فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) أى بِئْسَ المقيل والمقام لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشمار بعليّته لثوائهم فيها. ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا فى جواب (مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ) هو (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) فجحدوا رحمته وكفروا نعمته ـ تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا۟ خَيْرًا ، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ » وهم المؤمنون « مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا » أى أنزل خيرًا، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله، مكافأة فى الدنيا بإحسانهم . ولهم فى الآخرة ما هو خير منها. فقوله (فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ) كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا۟) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك. وهذه الآية كقوله تعالى[2] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وقوله[3] (فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ) وقال تعالى[4] (وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

---

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .
(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

لِّلْأَبْرَارِ) وقال[١] (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ، كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى[٢] : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) « كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، فى مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها فى نعيم برزخىّ إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى[٣] : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تقريع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .
(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال « كَذَٰلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى فتمادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِم » أى أحاط بهم « مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدتهم به الرسُل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ، فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ، فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيبا للرسول صلوات الله عليه، وطعنا فى الرسالة. وذلك قولهم (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ) أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مما لم يُنزل الله به سلطاناً ثم أعلم تعالى مشاكلتهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى من الشرك والتحريم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لَأَنكَرَهُ علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال الله تعالى رادًّا عليهم شبههم (فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهى ، وبعث فى كل أمة ، أى فى كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا . وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ماسواه (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا فى هذه الآية . فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ)؟

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّـهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضا ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضا . فإن الآية من معارك الأفهام . فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعلل بالقدر وقال : حتى يقدّر الله ذلك ، أو يقدّرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِىَ عن فعل ما حرّم الله قال : اللهُ قضاه علىَّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتجُّ به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلمُ القلوبُ بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به ـ لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون[1] (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)[2] (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخرَ أو حرج فى ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ـ لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغى فعله (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظنًّا (وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم فى نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم فى نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدّره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد فى الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون فى القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض فى سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضاً ويعادى بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضا على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حقّ ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفى الصحيحين[١] عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعَذِّبهم .

فالاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به فى ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لا فى ترك ما يرونه حقًّا لهم ولا فى مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفرّون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلا . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغىّ لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهى ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات فى أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذى يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص . وهم متبعون أهواءهم فى الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى[٢] (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) وقد ذكر الله تعالى هـذا المعنى عن المشركين فى سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى[٣] : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال فى سورة الأنعام[١] (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ) إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى[٢] : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) ثم أثبت القدر بقوله: (فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما حق . وقال فى النحل[٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ) فَبَيَّنَ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففى فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الكتب . كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم[٤] أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر فى الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويبغض الفواحش ، فيحبّ أن يمدح بالعدل والإحسان . وألّا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبيّن لهم وأزاح علتهم ، ثم تعدّوا حدودَه وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدّر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبيّن أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

---

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤٩] . (٢) [٤/ النساء/ ١٦٥] . (٣) [١٦/ النحل/ ٣٥] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لا شخص أغير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٩ ـ كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن ولىّ أمر أعطى قوماً مالًا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه فى البرية ليس عنده أحد وباتوا فى مكان بعيد منه ، وكان ولىّ الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لُقَطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا ـ لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب علىّ ، ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قائمة . ولم يكن يدعى فيهم ظالما . وإن كان لم يُعِنْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة فى إرسال الأولين والآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى، حَكَمٌ عدل فى كل ما جعله . ولا يخرج شىء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرّطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلًا حكماً فى خلق هذا وخلق هذا، والأمرِ بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يمدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ، لعدم اتباع الحق الذى بيّنه العلم. فإن الإنسان حىٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبىّ ﷺ[1] : (أصدق الأسماء . الحارث وهمّام) فالحارث الكاسب العامل . والهمّام الكثير الهمّ . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال فى الجامع الصغير : الشيرازىّ فى (الألقاب والكنى) والطبرانىّ فى الكبير) عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور. فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب. والحيّ مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذ تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوُّر قد يكون علماً وقد يكون ظنًّا وخرصاً . فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعا للظن وماتهوى نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لَدَدٍ وتفريج ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد فى باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقرًّا بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تكلم بغير علم . ومن تكلم بغير علم كان مبطلًا فى كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فإما أن يكون جاهلًا ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قدعرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه. فتبيّن أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم[1] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) . انتهى .

وله تتمة سابغة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانىّ فى هذه الآية : إِنَّمَا قَالُوا ذَٰلِكَ عِنَادًا وَتَعَنُّتاً عن فرط الجهل وإلزاما للموحدين بناء على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لايمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من فى العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفى القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركا ، قال الله تعالى[2] (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٧] .

مَآ أَشْرَكُواْ) وقوله تعالى[١] (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعناد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مامثاله :فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه. ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبّر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند المليّين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهىّ عنده . ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم[٢] (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصّبر ، لوقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التكلم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

---

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال فى موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدَر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ)[1] فلايسوغ لأحدٍ منا، وهو يدّعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ)

[٣٨] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث بقوله: « وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ، جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ » أى جاهدين فيها فـ(جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى إنه يبعثهم ، فيبتّون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حقّ ، فيكذبونه ـ وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه ومالا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ)

[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله «وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ» أى فى أباطيلهم. لاسيما فى أيمانهم بعدم البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة[1] (هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) ثم بيّن عظيم قدرته ، وأنه لايعجزه شىء مّا بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيوجد على ماشاء تكوينه كقوله تعالى[2] (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ) وقوله[3] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ).

قال الزمخشرىّ : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَن نَّقُولَ) خبره و (كُن فَيَكُونَ) من (كان) التامة التى بمعنى الحدوث والوجود. أى إذا أردنا وجودشىء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك ، لايتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لايمتنع عليه . وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل . ولاقولَ ثَمَّ . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إنَّ (كن) إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال . وإن كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ، فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلّان ، رجاءَ ثوابه وابتغاء مرضاته ، بقوله :

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ » أى مخلصين لوجهه، أو فى حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا سوى صغار أبنائهم، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أو هم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية. وقوله تعالى « مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ » أى أوذوا وأريد فتنتهم عن الدين «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالغلبة على من ظلمهم ، وإيراثهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالميهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ » أى على ما أوذوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحَدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لاظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إيحاء الله لرسوله ، واصطفائه برسالته ، قيل فى درء شبهتهم « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» يعنى أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله[٣] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لايعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد فى الفروع للعامىّ . وفى ذلك بحث طويل فى (إيقاظ الهمم) لِلْفُلَّانِي فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طَرَف منه فى (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ» أى بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجارّ متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أى أرسلناهم. أو بـ(ما أرسلنا) . أو بـ(نوحى) أو بـ(لاتَعْلَمُونَ) ، على أن الشرط للتبكيت والإلزام «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ» أى القرآن المذكّر والموقظ من سنة الغفلة « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أى مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين . أو يتأملون مافيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثّره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى المكرات السيئات التى قُصَّتْ عنهم . فهى

(١) [٣٦ / يس / ٦٩] .

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ(مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهةٍ لايعلمون بها ، كما لايشعر الممكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٤٨] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ)

«أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ» أى سعيهم فى المعايش واشتغالهم بها «فَمَاهُم بِمُعْجِزِينَ» أى لايعجزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك ومخافةٍ له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو ننقّص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » أى جسم قائم له ظلّ « يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ » أى عن جانبى كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سُجَّدًا لِّلَّهِ » أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرهما ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَٰخِرُونَ » أى صاغرون. وغلب فى جمعها من يعقل، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعتبر ماذكر فيه ، ويجعل مابعده جاريا على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ فى سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه فى جهة واحدة . وهو فى العشىّ على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغايتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ ٱلْيَمِينِ) متعلق بـ(يتفيؤ) أو حال . كذا فى (العناية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ سجدة ﴾ [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ » أى الملائكة ، مع علوّ شأنهم « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته والسجود له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

« يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » أى من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله (مِّن فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلوّ ، له تعالى . وقد صنف فى ذلك الحافظ الذهبىّ كتاب (العلوّ) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرهما . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد فى (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علوّ بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ)

« وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ » . إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنى نص فى معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى فى نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلِمَ ذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثانى صرّح به للدلالة على أنه المقصود الذى سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله[1] :

فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإنّ الحربَ أوَّلُهَا الْكَلَامُ

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاثنينيّة تنافى الألوهية . فهو فى معنى قوله[2] (لَوْ كَانَ

(١) قائله نصر بن سيّار . من أربعة أبيات ، يحسن الوقوف عليها ، ومعرفة سبب قولها . قال ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثانى .

كان يزيد بن عمر بن هُبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيّار . فكان لا يمدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثر ذلك على نصر ، قال :

أرى خَلَلَ الرماد وَمِيضَ جَمر ... ويوشِكُ أن يكون له ضِرَامُ

والبيت . . .

فإن لم يُطْفِهَا عُقَلَاءُ قوم ... يكون وَقُودَهَا جُثَثٌ وهامُ

فقلت من التعجب : ليت شعرى ! ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيامُ

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فلما صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التى هى من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ ٱللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ ٱللَّهُ) على أسلوب[1] * عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِدَا * .

---

(١) وعجز البيت :

* حتى غَدَتْ هَمَّالةً عيناها *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهـــذا الشاهد على نسبة إلى قائل معيَّن . ويروى صدره عَجُزا فى بيت آخر ، هكذا :

لَمَّا حططتُ الرحلَ عنها وارداً عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً باردَا

الشاهد فيه قوله (وماءً) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل فى المعطوف عليه ، لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعلماء ثلاثة أراء فى تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها ـ أن قوله : (وماءً) لا يجوز أن يكون مفعولا معه، كما لا يجوز أن يكون معطوفا على ماقبله عطف مفرد على مفرد. بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذى ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا فى ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ماقال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه . وفى قوله (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) التفات عن الغيبة، مبالغة فى الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)

[٥٣] (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

[٥٤] (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٥٥] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » معطوف على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أوعلى الخبر، أومستأنف . «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا» أى العبادةلازمة له وحده. ولزومها له ينافى خوف الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله[1] : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

« أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ» أى لاتضرعون إلا إليه ، لعلمكم أنه لايقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجؤار : رفع الصوت . يقال : جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة فى رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله : « لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم. واللام للعاقبة والصيرورة « فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشانىّ وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لاتأثير لغير الله فى شىء . ثم بيّن تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ)

«وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ». أى لآلهتهم التى لاعلم لها لأنها جماد «نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ» أى من الزرع والأنعام وغيرها تقربا إليها « تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى : من أنها آلهة يُتقرب إليها . ومرّ نظير الآية فى سورة الأنعام فى قوله سبحانه[1] (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيباً) الآية، فانظر تفصيلها ثَمَّتَ «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات الله، فنسبوا له تعالى ولدا ولاولد له. واجترءوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة أدنى القسمين له من الأولاد، وهو البنات. وهم لايرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور، أى يختارونهم لأنفسهم ويأنفون من البنات. وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله (سُبْحَـٰنَهُۥ) أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراءتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ، ومن مقاستهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه[2] (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١و٢٢] .

قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ) وقال تعالى[1] (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفظاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ، أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ، أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا » أى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كناية أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها مايوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ » أى من أجله وخوف التعيير به. ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثا نفسه متفكراً فى أن يتركه على هوان وذلّ ، لايورّثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حيًّا « أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يجعلون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥١ـ١٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم «مَثَلُ السَّوْءِ» أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهة الإناث ووَأْدهن ، خشية الإملاق ، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنىّ عن العالمين . والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئ المتقدمة « مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِن دَآبَّةٍ » أى لأهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين «وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى»

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى المسمى « لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّـهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مالهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله[1] (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ) يعنى جَمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتمنّى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدّدت ، مكتوبا (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ. أجل. كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ) الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء .

قال أبو العلاء المعرّى[2] :

سَرَى بَرْقُ المَعَرَّةِ بعد وَهْنٍ ... فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

---

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلَاصِ كشفتِ حالَا ... ومِنْ عندِ الظَّلَامِ طلبت مالَا

(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرّة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ » أى معجّلون إليها ومقدّمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته فى طلب الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيّون فى النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على ما حكاه الفراء . كقوله تعالى[1] : (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) وقرأ نافع (مُفْرِطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوزو الحدّ فى معاصى الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرّط فى كذا) إذا قصر . ويقرب من الآية ما قص عنهم فى قوله تعالى[2] (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى[3] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا).

ثم ذكر تعالى نعمته فى إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليتأسى صلوات الله عليه بهم بقوله سبحانه :

= معرّة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ » أى من الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ » أى قرينهم ، يُغْوِيهم . أو المراد باليوم يوم القيامة . والولىّ بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة فى نفيه ، وتهكم ، على حدّ (عتابه السيف) « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » أى فالقرآن هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، وكل ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته فى آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثْرَ قدرته فى إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله من وحيه وهداه ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ)

« وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ » أى

بالنبات والزرع، بعد جدبها ويبسها «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالته «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ» أى سهل المرور فى حلقهم.

بيّن تعالى آيته فى الأنعام بما ذكر، ليستدل به على واحدانيته وانفراده بالألوهية. وليستدل به أيضاً على الحشر. فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب. فقلب الطين نباتاً وعشباً، ثم تبديله دماً فى جوف الحيوان، ثم تحويله إلى لبن، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة. وإنما ذكّر الضمير فى بطونه هنا، وأنثه فى سورة المؤمنين، لكون الأنعام اسم جمع، فيذكر ويفرد ضميره، باعتبار لفظه. ويؤنث ويجمع باعتبار معناه. وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٧] (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة، ومنّته فى المشروب منها والمطعوم. و(السَّكَرُ) مصدر سمى به الخمر. فهو بمعنى السُّكْر كالرَّشَدِ والرُّشْدِ. قال الفراء: السَّكَر الخمر نفسها. والرزق الحسن الزبيبُ والتمر وما أشبههما، ولا يقال: الخمر محرمة، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام؟ لأنَّ هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة. فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة. وأجاب الرازىّ بجواب ثان.

وهو : أنه لاحاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما فى هـذه الأشياء من المنافع . وخاطب المشركين بها . والخمر من أشربتهم . فهى منفعة فى حقهم .

قال : ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر ، فوجب أن لا يكون السَّكَر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفى (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على مالا يسكر من الأنبذة ، وعلى ماذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما فى (الكشاف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هـذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا فى قوله تعالى : (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنه أشرف مافى الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، دلائل قاهرة وبينات باهرة ، على أن لهذا العالم إلها واحداً قادرا مختاراً حكيما ـ أرشد إلى آيته الساطعة فى النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحى الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوى إليها فى ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت فى غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافى لا يتعهدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد فى الخلايا. ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى. فهى تتخذها أوّلًا . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى من كل ثمرة تشتهيها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفىّ ، أو لفظ (كُل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (مِنَ) فى قوله تعالى (مِنَ ٱلْجِبَالِ) الخ ، على (فى) دلالة على معنى التبعيض. وأن لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها. نبه عليه الزمخشرىّ .

قال الناصر : ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه فى تبعيض (من) المتعلقة باتخاذ البيوت. بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجرْ عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت، والإطلاق لها فى تناول الثمرات. كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شىء شئت. فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار فى المواضع النائية فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعّر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللا) جمع ذلول ، حال من (السبل) أى مذللة ذللها الله لكِ وسهلها. فهى تسلك من هذا الجوّ العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُو » أى فمنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النَّور أو مزاجها « فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية فى بعض الأمراض . وله دخل فى أكثر ما به الشفاء والمعاجين . وقلّ

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرته بالنسبة إليه . وفى الصحيحين(١) عن أبى سعيد الخدرىّ ، رضى الله عنه ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطاق بطنه فقال : اسقه عسلا . فذهب فسقاه عسلًا فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلًا ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلًا فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يارسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلًا . فذهب فسقاه عسلًا فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلًا وهو حارّ تحللت فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالًا ، فاعتقد الأعرابىّ أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفى (العناية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابىّ فانظرها .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بألوهيته . وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضابا ، وتلفظه شرابا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤ ـ باب الدواء بالعسل ، وقول الله تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعتنا) .

قال الحجة الغزالى (فى الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقدار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ماسخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ـ لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيرا فى نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية فى الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير ومايقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لاتبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة . ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير . ثم تتراصّ الجملة منه بحيث لاتبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفا به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . ليهنأ عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفى طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضا فى الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارج . وفى طبعه أيضا النظافة . فلذلك يخرج رجيعه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذى يعمله فى الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلّ العسل فى الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفا على نفسه من نفاده لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل فى الخلايا . قالوا : وكيف النحل فى الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالًا إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يسلخ جلده كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة، ويضره السوس ودواؤه أن يطرح له فى كل خلية كف ملح . وأن يفتح فى كل شهر مرة . ويدخن بأخثاء البقر . وفى طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا فى (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزالىّ أيضا فى كتاب (الحكمة فى خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق. لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجّا، افترق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل فى أجوافها عسلا . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وملاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم . فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع فى أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح . فانظر فى هذه الذبابة، هل فى علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسد فيها! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها فى ترتيب بيوتها من الحكمة فى بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمـــه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ماذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك. وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب . والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة . والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ، فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ » أى أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ » أى أضعفه وأردئه وهو الهرم. وقوله تعالى «لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا» اللام للصيرورة والعاقبة. أى فيصيرُ ، إن كان عالما ، جاهلًا. فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال فى (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسى يعلم الشىء ثم ينساه، فلا يعلم بعد ماعلم. أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل، والمعنى لايترق فى إدراك عقله وفهمه ؛ لأن الشاب فى الترقى ، والشيخ فى التوقف والنقصان .

وفى (الكشاف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية فى النسيان. وأن يعلم شيئا ثم

يسرع فى نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لئلا يعلم زيادةعلم على علمه الأول. و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية. وجوز فيهالتنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً مابعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ » أى بمعطيهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولاتجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم؟ كما قال فى الأخرى[1] (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) الآية.

« أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فَيُشْرِكُونَ مَعَهُ غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ماأنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أوفى تحريم ماأحل لهم «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا »أى من مطر أونبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً. وإن جعل اسماً للمرزوق فـ (شيئاً) بدل منه بمعنى قليلاً . و (من السموات) متعلق بـ(يملك) على كون الرزق مصدراً . أو هو صفة لـ (رزقاً) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أوْ لااستطاعة لهم أصلاً . أوالضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون، فكيف بالجماد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً . والضرب للمثل فيه معنى الجعل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مَثَل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم فى النهى عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفى لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعىٌ عظيم على سوء فعلهم . كذا فى (شرح الكشاف) .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهى . أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلىّ وهو الإشراك ، عقبه بالكشف لذى البصيرة ، عن حالهم فى تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » يعنى أن مثل هَؤُلَاءِ فى إشراكهم ، مثلُ مَن سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّ مالك يتصرف فى ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله : (وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ) الخ على (مالكاً) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكيره الإنفاق منه فى السر والجهر ، ليكون عاملا بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) أى على ماهدى أولياءه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لايستحقه شىء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هـذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لايعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا » أى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطيق المفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ » أى ثقيل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لَا يَأْتِ بنجحه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثّهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ماذكر من نفعه العام « عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لايتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهرىّ : ضرب تعالى مثلًا للصنم الذى عبدوه وهو لايقدر على شىء ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحمله إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان. فقال الله تعالى: هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لاتسووا بين الصنم الكلّ وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشرىّ بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التى هى أموات لاتضر ولاتنفع . انتهى .

وناقش الرازىّ فى حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبكم وبالكل وبالتوجه فى جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف فى الثانى بأنه على صراط مستقيم، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال فى جوابه بأن الأوصاف الأُوَل ، وإن كانت ظاهرة فى الإنسان (والأصل فى الإطلاق مايتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن. لأن الآيات فى بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لايصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص. وأما الوصف فى قوله (عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى[1] : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال، فى بحث أمثال القرآن ، فى هذين المثلين ما صورته :

فالمثل الأول . يعنى قوله تعالى (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شىء . ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً وليلًا ونهاراً . يمينه ملأى لايغيضها نفقة . سحّاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لاتقدر على شىء ، فكيف يجعلونها شركاء إلىّ ويعبدونها من دونى ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن فى الخير الذى عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لا يقدر على شيء. لأنه لا خير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر فى بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم فى إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله[1] : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ* فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّـهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّـهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : (ضَرَبَ ٱللَّـهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ) ومن لوازم هـذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منبها على إرادته . لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً فى كلام ابن عباس وغيره من السلف فى فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله .

وأما المثل الثانى ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضا. فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبىّ واللسانىّ ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حىٌّ قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. فإن أمره بالعدل، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه. وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعىّ الدينىّ والأمر القدرىّ الكونىّ . وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه. كما فى الحديث الصحيح[2] : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك عدل فىَّ قضاؤك . فقضاؤه

---

(١) [١٦ / النحل/ ٧٣ و ٧٤] .(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره الكونى[١] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان فى المقضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقضى . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب[٢] : (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقوله (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ) نظير قوله (نَاصِيَتِى بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِىَّ قَضَآؤُكَ). فالأول ملكه. والثانى حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد. وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق فى أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التى لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبرى[٣] : وقوله : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والمسىء بإساءته . لا يظلم أحدا منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبى نجيح عنه (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه.

---

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثانى عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

وقالت فرقة : هى مثل قوله[١] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته .

وقالت فرقة : فى الكلام حذف تقديره : إن ربى يحشكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أنَّ هذا معنى الآية التى أريد بها، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر. وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم. وإن أرادوا أنَّ حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره فى ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية. وقد فرق شعيب بين قوله[٢] : (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ) وبين قوله[٢] : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان .

فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه.

وقال جرير[٣] يمدح عمر بن عبد العزيز :

أميرُ المؤمنين على صراطٍ ... إذا اعوجَّ الموارِدُ مستقيمِ

وقد قال تعالى[٤] : (مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

---

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

ألُمْتِ وما رَفَقْتِ بأن تَلُومِى ... وقلتِ مقالةَ الخَطِلِ الظَّلُومِ

يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم مافى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم مايوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عرية منهما . فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى يختص به علم ماغاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة . فإن علمه غائب عن أهلهما ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و(اللمح) النظر بسرعة . أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لايخفى . وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لاتتناهى ، وأن مايذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا » عطف على قوله تعالى : (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا) منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) وقوله تعالى (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْـًٔا) منصوب على المصدرية . أو مفعول (تعلمون) والنفى منصبّ عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلا من حق المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ » أى فتدركون به الأصوات « وَٱلْأَبْصَٰرَ » فتحسون المرئيات « وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشى على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته فى خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ » أى مذللات « فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ » أى ما يمسكهن فى الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزالىّ فى الحكمة فى خلق المخلوقات ، فى حكمة الطير ، فى هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ماينا سبه. فإن كان رخواً أويابساً أوبين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ماهو لائق به .

فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له فى ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت فى موطن على الأرض وهى خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه. وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش فى الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه فى رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء. فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش فى موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى فى البرارى ولا فى البحائر حتى ينكب على صدره . وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق، ليزداد مطلبه عليه سهولة. ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائره ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق فى الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يغتذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هى فى العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله. وهو مقام الأسنان فى غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل فى سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل فى ريشه من الحكمة، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته. وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته فى طيرانه . فلولاه لمـا مالت به الأجنحة فى حال الطيران يميناً وشمالاً . فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذى يعدل بها سيرها. وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحبّ العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق فى أجواف الطير. ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه فى جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بهـا وتعوّق عن النهوض للطيران. أفلا ترى كيف دبر كل شىء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعـالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لمـا لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا » أى بيوتاً أخرى وهى الخيـام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها . أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها خفيفة المحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم فى مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هى خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً. قيل : والأول أولى. لأن ظهور المنة فى خفتها إنما يتحقق فى حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ » أى وجعل لكم من أصواف الضَّأْنِ وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى . ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى وينفى . أو إلى أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

«وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ» أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها «ظِلَٰلًا» أى أفياء تستظلون بها من حر الشمس «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا» أى بيوتاً ومعاقل وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أوْ لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قُطَّان الحجاز وهم الأصل فى هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً فى قوله[1] : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاقتصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ » كالدروع من الحديد والزرد ونحوها . التى يتقى بها سلاح العدوّ فى الحرب « كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شىء قليل . وقرئ (تَسْلَمُونَ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِن تَوَلَّوْا۟ » أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ » أى التى عددت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا « وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم فى معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيّها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها « ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله[1] : (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى لا يطلب منهم العتبى . أى إزالة عَتب ربهم وغضبه . (والعتبى) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى مايرضى العاتب . يقال: استعتبه أعطاه العتبى بالرجوع إلى مسرته. والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ، فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ)

« وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يؤخرون « وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها « قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ » أى أربابا أونعبدها « فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

---

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٥ و ٣٦] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام. وهذه الآية كقوله تعالى[١] : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ) وقال تعالى[٢] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

« وَأَلْقَوْاْ » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ » أى الاستسلام لحكمه بعد إبائهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » .

أى مِنْ أَنَّ لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى[٣]: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب: (كما قال القاشانى) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شرائر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم.

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٥و٦] . (٢) [١٩ / مريم / ٨١و٨٢] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكشف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ)

[٨٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى[١] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى[٢] : (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمنى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى[٣] (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .
(٣) [٤ / النساء / ٤١و٤٢] .

لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا) . وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » مستأنف . أو حال بتقدير (قد).

قال الرازىّ : وجه تعلق هذا الكلام بماقبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ) بيّن أنه أزاح علتهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير فى وجه ذلك : إن المراد، والله أعلم، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)(١) ، (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ، قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)(٣) وقال تعالى(٤) (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبييناً لكل علم نافع من خبرما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .
(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ » أى فيما نزله تبياناً لكل شىء « بِٱلْعَدْلِ » وهو القسط والتسوية فى الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه « وَٱلْإِحْسَٰنِ » أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه «وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ» أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه « وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ » أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى « وَٱلْمُنكَرِ » أى كل ما أنكره الشرع « وَٱلْبَغْىِ » أى العدوان على الناس « يَعِظُكُمْ » أى بما يأمركم وينهاكم « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود[١] : إن أجمع آية فى القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية .

وروى الإمام أحمد[٢]: أن عثمان بن مظعون مرّ على النبى ﷺ وهو جالس بفناء بيته. فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكثم بن صيفى قال لقومه[٣]: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧).

عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساء ولاتكونوا فيه أذناباً . وعن عكرمة ؛ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخى ! أعد علىّ . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وماهو بقول البشر .

وقد نقل أن بنى أمية كانوا يسبّون علياً ، كرم الله وجهه ، فى خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم مآثره .

قال الناصر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغى فيها ، وبين الحديث الوارد فى أن المناصب لعلىّ باغ . حيث يقول عليه الصلاة والسلام[1] لعمار (وكان من حزب علىّ) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع علىّ يوم صفين . انتهى .

ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى ، وكونها أجمع آية لاندراج ماذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

« وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٣ ـ باب التعاون فى بناء المسجد ، حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعتنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال[١] : نزلت فى بيعة النبىّ ﷺ . كان مَنْ أسلم بايع النبىّ على الإسلام ، فأُمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كالمبايعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيد والتأكيد)، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو فى قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنقُضُواْ) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و (الجعل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقى (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلًا لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلا بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب ـ لكان معنى بليغاً جدًّا . وقوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الأيمان . وجلىٌّ أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ماثبت عن النبىّ ﷺ فى الصحيحين[٢] أنه قال : إنى ، والله ! إن شاء الله ، لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هوخير وتحللتها . (وفى رواية : وكفَّرت عن يمينى) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٧ـ١٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » تأكيد لوجوب الوفاء وتحريم النقض. أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها، بعد أن أحكمته وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .

فى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل ، داخل فى زمرة النساء. بل فى أدناهن ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» حال من الضمير فى(ولا تكونوا) أى لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش، هى أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز المحق من المبطل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجىّ ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ، من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشىء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لااستفسار وتفهم . وهو المنفىّ فى غير هذه الآية. أو فى موقف دون موقف كما مر.

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ » تصريح بالنهى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهىّ عنه، تأكيداً عليهم ومبالغة فى قبح المنهىّ « فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدتُّمْ » أى بصدودكم عن الوفاء ، أو بصدكم غيركم « عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيذان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ . وأشار فى (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله[1] : (وَأَعْتَدَتْ

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

لَهُنَّ مُتَّكَئًا) أى لكل واحدة منهن متكئاً . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد (قَدَمٌ) مراعاةً لهذا المعنى . ثم قال (وَتَذُوقُواْ) مراعاة للفظ الجمع .

قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافى النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يَعِدُونهم ويمنّونهم، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم » أى على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » هـذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايمىّ : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعسارُه . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه؛ إذ يزداد حرصًا وخوف فوات. ويجزون بالأحسن فى الآخرة. فلا يقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا. بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى. انتهى.

وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنوّر بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ».

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أُمر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجىء إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه. وقد بينت آية[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ،وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أن هذه عادة الشيطان، إثر ما يتلوه كل نبيّ على أمته من الأحكام المتجددة التى يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحى ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أى تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكاره ولم يبالوا بما يلقون فى سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ،فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالكواكب . والضمير فى (بِهِ) لربهم والباء للتعدية. أوللشيطان والباء للسببية .أى بسببه وغروره ووسوسته. ورجح باتحاد الضمائر فيه. وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه فى عبادة الله تعالى ، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] .

تنبيه :

فى الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها فى غيره ﷺ التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » .

التبديل رفع الشىء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى. والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكما بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما، من الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية .وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطرىّ . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبىٍّ أُمِّىٍّ لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المكىّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه. وللبحث تفصيل فى موضع آخر. وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى[1] (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى[2] (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردًّا للحق ، وعناداً للهدى ، وتوليا للشيطان ، وتعبّدا لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ الْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخيّر والخبر السيء والرجل الصادق. وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والمقدس المطهّر من الأدناس البشرية. وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِن رَّبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية. وقوله (بِالْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره، وقوله تعالى (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى: (وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) .

يخبر تعالى عن المشركين فى قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذى يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلًا أعجميًّا كان بين أظهرهم يقرأ فى الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبىّ صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيذان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذى ينسبون إليه التعليم أعجمىّ غير بيّن . وهذا القرآن الكريم لسان عربىّ مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمىّ أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلًا أن ينطق به ، فضلًا أن يكون معلماً له ! وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تهديدلهم على كفرهم بالقرآن، بعدماأماط شبهتهم وردّ طعنهم فيه. وقوله تعالى: « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » ردّ لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهُوَ . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لايؤمن، لأنه لايخاف عقاباً يردعه عنه، وقوله تعالى « وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لايؤمنون، ويدخل فيهم قريش دخولاً أوليًّا . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى مافى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه. وقد كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملًا وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لايشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لايُدْعَىٰ بينهم إلا بالأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم[1] أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنَّمَا) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لايقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية .

وروى[2] أن النبىّ ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازىّ . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ ـ كتاب ما يكره من الكلام، حديث ١٩ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١٠٧] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْءَاخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ)

[١٠٨] (أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ)

[١٠٩] (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ)

« مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْءَاخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ » .

لما بيّن تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، فى المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ماللردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلامٍ قويٍّ وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إيثارا لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولًا . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجلىٌّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازىّ : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه . فلهذا قال : (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَن) فى قوله تعالى (مَن كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبيّن لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أوعطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن المكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفى طلاق المكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلّا ما استثنى . أفاده السيوطىّ فى (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس[1] ؛ أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذَّبه المشركون حتى يكفر بالنبىّ ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذرًا . قال ابن جرير[2] : أخذ المشركون عمارًا فَعَذَّبوه . حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبىّ ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنًّا بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فَعُدْ .

وقال ابن إسحاق[3] : إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضى الله عنه عبدًا لبعض بنى جُمَح . يخرجه أمية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى . فيقول (وهو فى ذلك البلاء) : أحدٌ . أحدٌ حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضى الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبرًا آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام .

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالسًا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزّى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له : هذا الجُعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ، مما يبلغون من جَهْده .

وقد ذكر ابن هشام[1] فى (السيرة) فى بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب فى هذا الباب ، فانظره .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم، وهم يفعلون به الأفاعيل، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارىّ ، لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمىّ ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم. فجاءوا به إلى ملكهم. فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى. فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذًا أقتلك . فقال: أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

ثم أمر بقِدْرٍ فأُحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة . تلقى فى هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لى ، بعدد كل شعرة فى جسدى ، نفس تعذب هذا العذاب فى الله .

وفى بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لى . ولكن لم أكن لأشمتك فىّ . فقال له الملك : فقبّل رأسى وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبدأ . فقام فقبل رأسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أى إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجارّ فى قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر (إنّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُوا)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله (جَـٰهَدُواْ) فى بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا فى سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال فى الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِى كلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَـٰدِلُ) أى تحاجّ وتسعى فى خلاصها . لايهمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شىء مَا « وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » فى ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ)

«وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ» اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة ، أنذرهم بنقمته فى الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ ٱللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى هـذه حالها مَثَلًا لـكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فـكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نقمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولًا أوليًّا ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدرة بهـذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولًا أول ، لئلا يحول المفعول الثـانى بينهـا وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن الـكل مخلّ بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقبًا لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم مايدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل. فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضـل تمـكن . والمراد بالقرية أهلها مجازا ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَـةً مُّطْمَئِنَّةً) أنه لايزعجها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذَٰقَهَا ٱللَّـهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم، باللباس الغاشى للابس. فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هـذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لايخاف. كما قال تعالى[1] (وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٧] .

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال ههنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هَنِيئًا سَهْلًا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمُها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى[1] : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال : (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافه . فدعا[2] عليهم بسبعٍ كسبع يوسف . فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم فى قوله[3] : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية ، وقوله تعالى[4] : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا) ، وقوله[5] : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخارىّ ، تعليقاً ، فى : ٨٠ كتاب الدعوات ، ٥٨ ـ باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين فى تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلا ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

١١٤] (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى من الحرث والأنعام « حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعدّ قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فلا يؤاخذه بذلك .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لاتقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم ، بالحل والحرمة فى قولكم (مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . فـ (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله: (هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لاتقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه. أو (هَذَا حَلَالٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لِتَفْتَرُوا) بدل من التعليل الأول . أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب، أى لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : (لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم ، لتمرنهم على الكذب ، اجترءوا على الكذب على الله، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه. وعلى هذا الوجه ـ كون الكذب مفعول (تصف) ـ ففى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجعله عين الكذب . ترق عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها، فـ (تصف) بمعنى توضح. فهو بمنزلة الحدِّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب. فالتعريف فى الكَذِبِ للجنس. كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته. وعليه قول المعرّى[1]:

سَرَى بَرقُ المَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الكَلَالَا

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه. و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه، الذى يعرف منه. حتى كأنه يصفه ويعرّفه، كقوله:

أضحتْ يمينُكَ من جودٍ مصوّرةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

فهو من الإسناد المجازىّ. أو نقول: إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال. فهو استعارة مكنيّة. كأنه يقول: ما بى هو الجمال بعينه. ومثله وارد فى كلام العرب والعجم. هذا زبدة ما فى (شروح الكشاف).

وما فى الآية أبلغ من المثال المذكور، لما سمعت. أفاده فى (العناية). واللام فى (لِّتَفْتَرُواْ) لام الصيرورة والعاقبة المستعارة من التعليلية. إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا، بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر. وجوز كونها تعليلية، وقصدهم لذلك غير بعيد. وفى قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يعتد به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب. وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال[2]: (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ).

تنبيه:

قال الحافظ ابن كثير: يدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعىٌّ

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ (هذا الجزء).

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤].

أو حلل شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل . فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا.

قال في (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله ، أو في سنة رسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدّمين له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول الله له : كذبت .

قال ابن العربي : كره مالك وقوم أن يقول المفتي : هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه. ويقال في المسائل الاجتهادية : إني أكره كذا وكذا، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ، بيّن ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافترائهم بأن ما حظروه لا سند له في شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ » يعني اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ » أي

فى سورة الأنعام فى قوله تعالى[١] : (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ . . .) الآية «وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ» أى فيما حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ «وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فاستحقوا ذلك . كقوله[٢] (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه فى تفسيرها مما يجئ هنا ، فتذكر . قالوا : فى الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلَّا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله فى قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ» أى العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا» أى التوبة «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته فى التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لمقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ، ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أى إماما يقتدى به ، كقوله تعالى[٣] : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمةً من الأمم ، لاستجماعه كمالات لا توجد فى غيره «قَانِتًا لِّلَّهِ» أى خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفًا» أى مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ» أى قائما بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى[١] (وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به « ٱجْتَبَىٰهُ » أى اختاره واصطفاه للنبوّة « وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، على شرع مرضىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

[١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

« وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً » أى من الذكر الجميل . كما قال[٢] (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال[٣] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية « وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ » أى فى عالم الأرواح « لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى المتمكنين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

« ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » أى بعد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناهُ إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لاتتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانىّ. وفى (الإكليل) استدل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٠] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨و١٠٩] .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فى (ثُمَّ) هذه مافيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليـل الله إبراهيم ﷺ من الـكرامة ، وأجلّ ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قِبَل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها .

قال الناصر: وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان. ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علوّ المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلًّا مما عطف عليه . فـكأنه بعد أن عدَّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وهٰهنا ماهو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبىّ ﷺ الأمىّ ، الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوًّا أمره بذلك فى القرآن العظيم . ففى ذلك تعظيم لهما جميعاً. لـكن نصيب النبىّ ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر. على مامهدناه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابّهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فِيهِ واحتالوا لحلّه .

قال القاشانىّ: أى مافرض عليك ، إنما فرض عليهم. فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين وحسن الخطاب، من غير عنف. فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهبهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهَبْ نفسك، على مَنْ ضَلَّ منهم، حسرات، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلًّا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلِّىّ . فما شرعه لك فى الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ» أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم فى الفتوة، وعرق راسخ فى الفضل والكرم والمروءة ، فاتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ، وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) ألا تراه كيف أكده بالقسم واللام فى جوابه ، وترك المضمر إلى المظهر حيث ما قال (لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) بل قال (لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر . فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتكدر بظهور صفة النفس. وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه. فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس. وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسىء بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها . فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجانى . أفاده القاشانىّ .

تنبيهات :

الأول : فى (الإكليل) : قال ابن العربىّ : فى الآية جواز المماثلة فى القصاص . خلافاً لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين والنخعىّ ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعىّ : سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له فى يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية . ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصرىّ وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق .

الثانى ـ قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد ، حين قتل حمزة رضى الله عنه ومُثِّل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلنّ بثلاثين رجلًا منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسمّ . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولًا عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، حين استشهد. فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثِّلَ به. فقال: رحمة الله عليك . إن كنتَ لَما علمتُ، لوصولًا للرحم فعولًا للخيرات . والله لولا حزنٌ من بعدك عليك ، لسرّنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلنّ بسبعين كمثلتك. فنزلت هذه الآية . فكفّر رسول الله ﷺ . يعنى عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف. لأن صالحًا (أحد رواته) هو ابن بشير المرىّ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخارىّ : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أُبىّ بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلًا ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد أَمَّن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ـ ناسًا سمّاهم ـ فنزلت الآية. فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول ـ فى مقدمة التفسير ـ يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة ـ ولا إلى ردّ ماروى من هذه الآثار. إذ به يتضح عدم التنافى . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هـذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما فى قوله تعالى[1] (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا) ثم قال[1] (فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ) الآية . وقال[2] (وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ) ثم قال[2] (فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ) انتهى .

ثم أكّد تعالى الأمر بالصبر، ليقوى الثبات والاحتمال، لكل ما يلاقيه فى سبيل الحق، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ)

« وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ » أى بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ » أى على الكافرين، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكايد « إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ». تعليل لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم. قال ابن كثير:

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى[١] (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) وقوله لموسى وهرون[٢] (لَا تَخَافَآ ، إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى[٣] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) وقوله[٤] (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟) .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداها تتمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولًا أوليًّا. وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه. عبَّر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكُن بك صابِرِينَ فإنَّما صبرُ الرَّعيةِ عندَ صَبْرِ الرَّاسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجرُكَ بَعْدَهُ واللهُ خيرٌ مِنْكَ للعبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزّانى أحد أحسن من تعزيته .

وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لى . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .